الفصل الأول

الفِكر المُستقبليّ في القُرآن الكريم

من المفارقات المثيرة أن من يبحث عن الفكر المستقبلي في القرآن الكريم، يجد تناقضا غريبا بين دلالة النص القرآني على العناية بالمستقبل وبين فهم علماء المسلمين لهذه الدلالة.[1]

ففي حين أن القرآن الكريم يهتم اهتماما بالغا بالمستقبل، ويحرض المؤمنين على الاهتمام به، نجد أن علماء المسلمين وخاصة المفسرين يجنحون إلى ترك الحديث عن المستقبل، على اعتبار أنه يبد الله سبحانه وتعالى، ويمنعهم إيمانهم هذا من البحث والدرس للفكر المستقبلي في القرآن الكريم.

والقرآن الكريم يعرض الفكر المستقبلي بأساليب شتى: بالأمر المباشر أحيانا، وبالأسلوب القصصي ووضع المقدمات في أحيان آخرى، وسنأخذ بعض المواقف التي تعالج هذا الموضوع.

١) الموقف الأول: الأمر المباشر:

يأتي الأمر المباشر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[2].

من النظرة الأولى إلى هذه الآية الكريمة، يتبادر إلى الفهم عناية القرآن الكريم بالغد ـ أي المستقبل ـ سواء كان في الدنيا أو في الآخرة، والذي يفيد هذا المعنى

١) عند الحديث عن أثر علم العقيدة على الفكر المستقبلي، سيزداد الأمر وضوحا بالنسبة لهذه النقطة من البحث.
٢) من سورة الحشر: الآية ١٨.

من الآية الكريمة تنكير لفظة «لغد» لأن تنكير لفظة ما يفيد عمومها وشمولها كما تنطق بذلك قواعد اللغة العربية، ولو أُخذت هذه الآية بهذا المعنى قديما لكان لها أكبر الأثر في تفوق الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم، ولكن لأسباب كثيرة، سوف تتضح في ثنايا هذا البحث- أصر كثير من المفسرين القدامى والمحدثين على جعل «الغد» هو يوم القيامة، وهذه بعض النماذج التي تبرز رأيهم في «الغد».

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ يعنى يوم القيامة، والعرب تكني عن المستقبل بالغد، وقيل: ذكر الغد تنبيها على أن الساعة قريبة، كما قال الشاعر: «فإن غدا لناظره قريب»[1]

وقال الحسن وقتادة: قرب الساعة حتى جعلها كغد، ولا شك أن كل آت قريب، والموت لامحالة آت، ومعنى ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾: يعني من خير أو شر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أعاد هذا تكريرا كقولك: عَجِّل عَجِّل . ارم ارم . وقيل التقوى الأولى فيما مضى من الذنوب، والثانية اتقاء المعاصي في المستقبل.[2]

والغد يوم القيامة: سماه باليوم الذي يلي يومك تقريبا له، وعن الحسن: لم يزل بقربه حتى جعله كالغد، وقيل: عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد، فإن قلت: ما معنى تنكير النفس والغد؟

قُلت: أما تنكير النفس: فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمن للآخرة- وعن مالك بن دينار: مكتوب على باب الجنة: «وجدنا ما عملنا، ربحنا ما قدمنا، خسرنا ما خلفنا» [3]

١) في فوائد الآل أن قائل هذا البيت هو قراد بن أجدع للنعمان بن المنذر، ولفظ البيت:
فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غـــدًا لناظره قــريب
٢) الإمام القرطبي- الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٤٨ ط دار الشام للتراث.
٣) الإمام الزمخشري، الكشاف ٤/ ٨٦ ط الحلبي ١٩٨٦م.

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أمر بتقواه، وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر.

- ﴿ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم ميعادكم وعرضكم على ربكم واتقوا الله تأكيد ثان.[1]

- ﴿ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾، وهو تعبير ذو ظِلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه، ومجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته، ويمد بصره في سطورها كلها، يتأمل وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته لينظر ماذا قدم لغده في هذه الصفحة وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف، ومواضع نقص، ومواضع تقصير، مهما يكن قد أسلف من خير، وبذل من جهد، فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلا، ونصيبه من البر ضئيلا؟

إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبدا، ولا يكف عن النظر والتقليب.[1]

- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ ليوم القيامة، سماه به لدنوه، أو لأن الدنيا كيوم، والآخرة كغده، وتنكيره للتعظيم.[1]

١) الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٣٤٢ ط دار المعرفة، بيروت.
٢) الأستاذ سيد قطب، ٦/ ٣٥٥١ ط دار الشروق، ١٩٨٦.
٣) الإمام البيضاوي، ٢/ ٢٥٧ ط الحلبي ١٩٥٥م.

بعد هذا السرد المتتابع لأقوال مجموعة من المفسرين الأجلاء، رأينا أن هناك شبه إجماع من القدامى والمحدثين من المفسرين على أن الغد المقصود في الآية الكريمة هو يوم القيامة ، ولكن هيهات أن نسلم لهم بهذا القول، وإن كنا نسلم لهم جميعا بمزيد فضل وسبق.

والحجة التي تقف في مواجهة هذه الأقوال تعتمد على العناصر الآتية:

١) إنه ليس هناك نص من القرآن الكريم، أو السنة الشريفة يخصص هذا الغد بيوم القيامة.

٢) إن القاعدة عند جمهور المفسرين أن التنكير يفيد العموم، ومع ذلك لم تُستعمل هذه القاعدة في هذه الآية كغيرها من الآيات في كتاب الله سبحانه وتعالى.

٣) ومع وجود الإباحة في التنكير، فلا يوجد دليل منع واحد.

٤) أن فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام يتسم بالمستقبلية والتخطيط الدقيق.

٥) وإذا كان «الغد» هو يوم القيامة فأي شيء يقدم للغد غير التخطيط للغد الدنيوي الذي يحفظ على المسلم كرامته وهيبته، ويجعل الأمة الإسلامية جديرة بالخلافة، وأن تكون خير أمة أُخرِجت للناس.

٦) والمفسرون حين يهملون المستقبل الدنيوي، فإن ذلك يرجع للفصل الشديد عندهم بين الدنيا والآخرة ونظرتهم للدنيا على أنها لهو ولعب، وهي كذلك بالنسبة للعابثين الذين تستهويهم لذة العيش والخلود إلى الراحة، ولكنها ليست كذلك عند أولئك الذين يطورون الحياة وينهضون بمشروع الله تعالى في تطوير كونه الواسع الغريب.

٧) إن المفسرين يتأثرون بعلوم المسلمين الأخرى مثل علم العقيدة وغيره، وهي علوم تجعل من الإيمان بالله تعالى نبذا لكل جهد يقوم به الإنسان.

والرأي في هذه الآية الكريمة أنها تعني كل غد بما في ذلك يوم القيامة، وأنه على كل مؤمن أن يتقي الله تعالى ويهتم بكل غد مقبل عليه، لأن الغد هو ما يستطيع الإنسان العمل فيه، لأن الماضي لا يمكن استرجاعه إلا للذكرى فقط، والحاضر يتحول إلى ماض بلحظاته المنصرمة وأهدافه المتلاحقة، فلا يبقى للمؤمن الذي يخشى الله تعالى إلا الغد؛ يخطط له ويطمئن على ما قدم هل، وينظر إليه بدقة ويعيد حسابه مرات عديدة، ويتوكل بعد ذلك على الله تعالى. والناظر إلى منهاج القرآن الكريم يجعل الدنيا والآخرة طلبة العبد المؤمن ومجال علمه وعمله، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[1].

فهؤلاء المؤمنون يطلبون نجاحا في الدنيا وفلاحا في الآخرة، والقرآن يقرهم على ذلك.

٢-الموقف الثاني الغد في رعاية الله وتوفيقه:

المواقف القرآنية التي تتحدث عن الإعداد للمستقبل والتخطيط له، ولكن المفسرين خرجوا كالعادة بالمعنى عن هدفه وأخذوه بعيدا عما وُضِع له، وهذا الموقف هو قول الله تعالى في سورة الكهف:

١) سورة البقرة، الآيتان ٢٠١، ٢٠٢.

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾[1].

ومن ينظر إلى الآيتين الكريمتين يجد أنهما تضعان نوعا من الاحتياط يلتزم به المسلم عند التخطيط للمستقبل. والمعنى أن ما خطط له العبد ودبره لن يكون مضمون النجاح إلا إذا شمله توفيق الحق سبحانه وتعالى، لأن في الغد أمور قد تغيب عن العبد.

فتقديم المشيئة سيساعده على تجاوزها هذا في القسم الأول من المعنى، والقسم الثاني قوله ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾، والمعنى هنا: أن الإنسان مهما خطط فأحسن التخطيط، يجب ألا يغتر بتدبيره وينسى ربه الذي وفقه لهذا التدبير، بل ويطلب من الله تعالى نتائج أفضل مما نظم وخطط- وفهم المعنى بهذا الشكل لا يتعارض مع سبب نزولها، بل يوضحه ويشرحه، فإذا قال النبي ﷺ لليهود سأجيبكم غدا، فإنه كان ينوي البحث عن الإجابة من خلال انتظار نزول الوحي عليه.

والمسألة فيها قسمان: قسم هو تخطيط النبي ﷺ للإجابة في الغد، وقسم يتعلق بنزول الوحي من عند الله تعالى، فأمره بتقديم المشيئة لكي يجتمع له الأمران: تدبير الإنسان وتوفيق الرحمن، ويجب أن يكون هذا هو دستور كل مسلم في حركته في الحياة.

١) سورة الكهف، الآيتان ٢٣ ، ٢٤.

ولو فطن السابقون لهذه المعاني لدفعوا الأمة كلها إلى الأخذ بمبدأ التخطيط والإعداد للمستقبل، ولكان حال الأمة غير ما هي عليه الآن من هوان، أمة تعيش عالة على أعدائها.

وسوف أعرض عليك الآن بعضا من أقوال المفسرين وفهمهم لهذه المعاني الكريمة:

رأي الإمام الفخر الرازي:

يقول في تفسيره للآيتين السابقتين: قوله ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ليس فيه بيان أنه شاء الله ماذا، وفيه قولان:

القول الأول: التقدير ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي يأذن لك في ذلك القول، والمعنى أنه ليس لك أن تخبر عن نفسك، أنك تفعل الفعل الفلاني إلا إذا أذن الله لك في ذلك الإخبار.

القول الثاني: أن يكون التقدير: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ إلا ان تقول: «إن شاء الله»، والسبب في أنه لا بد من ذكر هذا القول، هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلاني غدا لم يبعد أن يموت قبل مجيء الغد، ولم يبعد أيضا انه لو بقي حيا أن يعوقه عن ذلك الفعل شيء من العوائق، فإذا كان لم يقل إن شاء الله صار كاذبا في ذلك الوعد.[1]

١) لا نسلم بهذا الكلام للفخر الرازي، فالقرآن الكريم بالتصريح بالفعل للمستقبل مع عدم المشيئة مثل قول نبي الله إبراهيم: (إني ذاهب إلى ربي سيهدين). ولم يقدر المشيئة- وقول ذي القرنين: (أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا)، ويكثر في القرآن الكريم. أما تقديم المشيئة في هاتين الآيتين فقد جاء لأنهما يعلمان المسلمين أن التخطيط لكي ينجح لا بد أن يشتمل على التدبير من الإنسان والتخطيط من الرحمن.

والكذب منفر وذلك لا يليق بالأنبياء- عليهم السلام - فلهذا السبب أوجب عليه أن يقول: «إن شاء الله».[١]

ثم يلتفت الفخر الرازي إلى مذهبه الكلامي ويحاول إقحامه في تفسير هذه الآية فيقول: «أعلم أن مذهب المعتزلة، أن الله تعالى يريد الإيمان والطاعة من العبد، والعبد يريد الكفر والمعصية لنفسه فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الله، فتكون إرادة العبد غالبة وإرادة الله تعالى مغلوبة، وأما عندنا فكل ما أراد الله تعالى فهو واقع، فهو تعالى يريد الكفر من الكافر».[٢]

ويريد الإيمان من المؤمن، وعلى هذا التقرير فإرادة الله تعالى غالبة، وإرادة العبد مغلوبة، إذا عرفت هذا فنقول: إذا قال العبد لأفعلن كذا غدا إلا أن يشاء الله، والله إنما يدفع عنه الكذب، إذا كانت إرادة الله غالبة على إرادة العبد، فإن على هذا القول يكون التقدير: أن العبد قال أنا أفعل الفعل الفلاني إلا إذا كانت إرادة الله تعالى بخلافه.[٣]

---

١) قال موسى عليه السلام للعبد الصالح: (ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا) ومع ذلك لم يصبر عليه وخالفه ولم يطعن ذلك في نبوة موسى - عليه السلام - وأنت ترى أن كلام الفخر الرازى لا ينهض له دليل، وربما اكتسب قوته ممن سبقه فقط، فهو هنا يلزم الأنبياء بما لم يلزمهم الله تعالى به.

٢) لا نسلم بهذا الكلام أيضا للمؤلف، لأن الله تعالى يقول (ولا يرضى لعباده الكفر)، ويقول: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)، ولعل رأي المعتزلة أقرب إلى الفهم وأيسر في الدعوة إلى الله تعالى، أما قوله الإرادة غالبة أو مغلوبة فهو قول الرازي نفسه، وكل ذلك من قبيل الفروض النظرية، تعالى الله أن يخضع لفرض من فروض عبده.

٣) هذا الكلام الذي يقوله الإمام الرازي رفضه الله تعالى من المشركين عند الحساب فقال تعالى: (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حُرمنا من شيء كذلك كذب الذين كذبوا من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون الظن وإن أنتم إلا تخرصون)- الأنعام ١٤٨- فهذه الآية نص في أن من قال إن الله تعالى لو شاء ما كفرت لم ينفعه قوله، وهذا الكلام من باب سوء الأدب مع الله تعالى، ومفهوم هذه الآية يناقض كل ما قاله الإمام الفخر الرازي في تفسير المشيئة.

فأنا على هذا التقدير لا أفعل لأن إرادة الله غالبة على إرادتي، فعند قيام المانع الغالب لا أقوى على الفعل، أما بتقدير أن تكون إرادة الله تعالى مغلوبة، فإنها لا تصلح عذرا في هذا الباب، لأن المغلوب لا يمنع الغالب، إذا ثبت هذا فقول: أجمعت الأمة على أنه إذا قال لأفعلن كذا ثم قال إن شاء الله دافعا للحديث فلا يكون دافعا للحنث إلا إذا كانت إرادة الله تعالى غالبة، وأنه لا حاصل في الوجود إلا ما أراد الله تعالى. (١)

خرج المؤلف بالمعنى المطلوب إلى قضايا متشعبة لا علاقة لها بالموضوع المراد من الآيتين، وهو التخطيط مع طلب التوفيق من الله تعالى.

رأي الإمام الألوسي

يقول رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ أي لأجل شيء تعزم عليه «إني فاعل ذلك الشيء «غدا» أي فيما يستقبل من الزمان مطلقا، وهو تأكيد لما يدل عليه اسم الفاعل بناء على أنه حقيقة في الاستقبال، ويدخل فيه الغد بمعنى اليوم الذي يلي يومك، وهو المتبادر دخولا أوليا. فإن الآية نزلت حين سألت قريش النبي ﷺ عن الروح، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، فقال- عليه الصلاة والسلام: غدا أخبركم ولم يستثن، فأبطأ عليه ﷺ الوحي خمسة عشر يوما على ما رُوِي عن ابن إسحاق وقيل ثلاثة أيام وقيل: أربعين يوما. فشق ذلك عليه ﷺ وكذبته قريش وحاشاه.

﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ استثناء متعلق بالنهي على ما اختاره جمع من المحققين، وقول ابن عطية، اغترارا برد الطبري، أنه من الفساد بحيث كان الواجب أن

١) الإمام الفخر الرازى: التفسير الكبير ٢١/ ١٠٩ ط.

لا يحكي خروجا عن الإنصاف، وهو مُفرغ من أعم الأحوال، وفي الكلام تقدير(باء) للملابسة داخلة على أن والجار والمجرور في موضع الحال، أي لا تقولن ذلك في أي حال من الأحوال إلا حال ملابسته بمشيئة الله عز وجل، بأن تذكر.

قال في الكشف إن التباس القول بحقيقة المشيئة محال؛ فبقي أن يكون بذكرها وهو إن شاء الله تعالى ونحوه ، مما يدل على تعليقه الأمور بمشيئة الله تعالى، ورد بما يصلح أن يكون تأييد الإرادة، وجوز أن يكون المستثني منه أعم الأوقات، أي لا تقولن ذلك في وقت من الأوقات إلا في وقت مشيئة الله تعالى ذلك القول منك، وفسرت المشيئة على هذا بالإذن، لأن وقت المشيئة لا يعلم إلا بإعلامه تعالى به وإذنه فيه.

فيكون مآل المعنى: لا تقولن إلا بعد أن يُؤذن لك بالقول، وجوز أيضا أن يكون الاستثناء منقطعا، والمقصود منه التأبيد أي: ولا تقولن ذلك أبدا، ووجه ذلك في الكشف بأنه نهى عن القول إلا وقت مشيئة الله تعالى وهي مجهولة، فيجب الانتهاء أبدا.

﴿ فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾: أي مخبر عن قول يتعلق بالوحي غدا غير مؤذن لأن قوله في الغد يكون من عنده لا عن وحي، فالتشبيه في أن الاستثناء بالمشيئة استعُمِل في معرض التأييد، وإن كان وجه الدلالة مختلفا أخذا من متعلق المشيئة تارة، ومن الجهل بها اخرى، ولا يخفى أن الظاهر في الآية الوجه الأول، وأن أمته ﷺ وهو في الخطاب الذي تضمنته سواء مخصوصا بالنبي ﷺ ولا يجوز أن يكون الاستثناء متعلقا بقوله تعالى ﴿ إِنِّي فَاعِلٌ ﴾ بأن يكون استثناء مفرغا مما في حيزه من أعم الأحوال، أو الأوقات،لأنه حينئذ إما أن تعتبر تعلق المشيئة

بالفعل فيكون المعنى إني فاعل في كل حال، أو في كل وقت، إلا في حال أو وقت مشيئة الله تعالى عدم الفعل، ولا شبهة في عدم مناسبته للنهين بل هو أمر مطلوب.[1]

هذه هي خلاصة تفسير الإمام الألوسي لهذه الآية الكريمة، وما تبقى من تفسيره لهذه الآية مشابهة لما نقله الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية من آراء أهل السنة والمعتزلة، ولذلك رأيت عدم نقلها خشية التكرار، ولا يختلف رأي الإمام الألوسي عن سابقه في استخدام دلالات الكلمات استخداما فلسفيا ممزوجا بعلم الكلام، ومحاولة إدخال القارئ إلى ساحة لا توضح لكتابه تعالى معنى ولا تعود على القارئ بمنفعة عاجلة، أو آجلة، وربما نقلت لك هذه النصوص ـ مع التطويل ـ لكي تقف على حجم المأساة وتنظر عمق جذورها.

روح البيان:

يقول صاحب روح البيان: قال الإمام في تفسيره ، والسبب في أنه لا بد من ذكر هذا القول هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلاني غدا لم يبعد أن يموت قبل أن يجئ الغد، قال أبو الليث ـ رحمه الله ـ روى أبو هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ أنه قال: قال سليمان بن داود عليهما السلام، «لأطوفن على مائة امرأة، كل امرأة تأتي بغلام يقاتل في سبيل الله».

ومن لطائف روضة الخطيب أنه سُئِل رجل إلى أين؟ فقال الكناسة لأشتري حمارا فقيل له: قل إن شاء الله، فقال لست أحتاج إلى الاستثناء، قال القرطبي في تفسير هذه الآية هذا في تدارك البشري والتخلص من الإثم. قال في مناقب

١) الإمام الألوسي: روح المعاني، ٥/ ٢٤٧، ٢٤٨ ط دار الفكر بيروت، ١٩٧٨م.

الإمام الأعظم، رُوِي أن محمد ابن اسحاق صاحب المغازي كان يحسد لما رأى من تفضيل المنصور أبي جعفر أبا حنيفة على سائر العلماء.[1]

يُلَاحظ على الفقرة السابقة السطحية وعدم الجدية، والتمسك بمرويات لا سند لها ولا تساعد على فهم المعنى، وكما أسلفت من قبل، فهذه التفاسير لا يُكتب لها البقاء لذاتها، ولكنها تكتسب أهميتها من الزمنية والعصبية، أما الزمنية فإنها كُتبت منذ زمن بعيد يُنظر إلى علمائه باحترام بالغ، وأما العصبية فلأن كثيرا من العلماء كانوا يكتبون متشيعين لمذهب معين؛ وكان أنصار هذا المذهب يتشيعون لهؤلاء العلماء في حياتهم وبعد موتهم، ومن هنا ضاع كثير من الحقائق في زحام الزمنية والعصبية، ولكي تقف على صحة هذه المقولة، اقرأ ما كتبه هذا المفسر ثم انظر ما نُعِت به في ألقاب.[1]

ولذلك وصلنا في ثقافتنا الإسلامية إلى وضع إذا أردت فيه أن تجلي موقفا من مواقف القرآن الكريم فعليك أولا: أن ترفع من فوق المعنى الحقيقي لهذا الموقف الكثير من الأوراق والأحبار والعصبيات التي وضعت فوق هذا الموقف، لتأكد صحة الموقف الذي وضعت له مكتسبة قوتها من بعدها الزمني، مع أن البعد الزمني قيد على التفسير الموضوع فيه، وليس ميزة له، لأن القرآن الكريم يناسب كل زمان ومكان، وعليك ثانيا: أن تواجه الذين تشيعوا لهذا الفكر الزمني العصبي، وبعضهم حفظه عن ظهر قلب، ولم يفكر فيما حفظ ، بل لم يحاول ذلك.

---

١) إسماعيل حقي البرسوي، روح البيان ٥/ ٣٤ ط دار الفكر، بيروت.

٢) ووُصِف الشيخ إسماعيل حقي بأنه العالم الفاضل والشيخ النحرير الجامع الكامل بين البواطن والظواهر ومفخر الأماثل والأكابر، خاتمة المفسرين، وقدوة أرباب الحقيقة واليقين، فريد أوانه، وقطب زمانه، منبع جميع العلوم، مولانا، ومولى الروم/ الشيخ إسماعيل حقي البرسوي، قدس الله سره العالي.

ومن الأدلة على ذلك، اختفاء الفكر المستقبلي في التفاسير مع وضوحه ناصعا في القرآن الكريم.

رأي صاحب فتح القدير:

يقول: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾

لأجل شيء تعزم عليه فيما يستقبل من الزمان، فعبر عنه بالغد، ولم يرد الغد بعينه، فيدخل فيه الغد دخولا أوليا، قال الواحدي: قال المفسرون: لما سألت اليهود النبي ﷺ، عن خبر الفتية فقال: أخبركم غدا، ولم يقل إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه حتى شُقَّ عليه فأنزل الله هذه الآية يأمره بالاستثناء بمشيئة الله تعالى يقول: إذا قلت لشيء إني فاعل ذلك غدا فقل إن شاء الله، وقال الأخفش، والمبرد، والكسائي، والفراء: لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن تقول إن شاء الله، فأضمر القول، ولما حذف تقول ذلك في حال من الأحوال، إلا حال ملابسته لمشيئة الله، وهو أن تقول إن شاء الله، أو في وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله مطلقا: وقيل: الاستثناء جار مجرى التأبيد، كأنه قيل: لا تقولنه أبدا كقوله: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾، لأن عودهم في ملتهم مما لا يشاؤه الله ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الاستثناء بمشيئة الله ـ أي فقل إن شاء الله سواء كانت المدة قليلة أو كثيرة.[1]

والإمام الشوكاني يميل إلى ما ذهبنا إليه في بداية هذا الموقف، وهو: إن قول إن شاء الله تعالى لجلب التوفيق، إلا أنه يُلَاحظ في كل ما تقدم من تفاسير لهذه الآية الكريمة، لم يظهر المعنى الذي يخدم المستقبل أو الفكر المستقبلي في القرآن الكريم،

١) الإمام الشوكاني: فتح القدير ٣/ ٢٧٨ ط الحلبي ١٩٦٤م.

وهذا ما يؤكد أن الفكر المستقبلي ليس له حظ في الفكر الديني عند كثير من العلماء القدماء والمحدثين، رغم أن مصادر الإسلام (القرآن الكريم والسنة الشريفة)، تحمل هذا الفكر المستقبلي وترعاه كما رأينا في هذه الآية الكريمة، وسوف يتضح هذا أكثر في تفسير الموقف التالي :

الموقف الثالث الدعوة إلى التضحية:

والموقف الثالث من المواقف التي تتحدث عن المسستقبل في القرآن الكريم، بل لعل هذا الموقف يُعتبر نصا في هذا الموضوع وهو يؤكد ما ذهبنا إليه وما التزمنا به من أن التخطيط للمستقبل ليس شيئا مستحدثا بل هو ركن أصيل من أركان الفكر الإسلامي، وأسلوب متميز من أساليب النجاح في الفترات التي ساد فيها الفهم الصحيح للإسلام.

يتجلى هذا الموقف في قصة نبي الله تعالى موسى- عليه السلام- مع العبد الصالح، وقد ذهب المفسرون فيها أو في فهمها مذاهب شتى، فمنهم من رآها تعبيرا عن العلم اللدني، وهو علم يُولَع به المتصوفة وأرباب الكرامات، ومنهم من أوقفها على أحداثها ورأى أنها شيء جدير بالتأمل وأنها تنفع للعظة والاعتبار، ومنهم من رآها تعبيرا عن القدرة الإلهية القاهرة والباهرة في آن واحد.

ولكن ليس من بين المفسرين من رآها رعاية للمستقبل وتأمينا له، وأنه من أجل المستقبل يجب التضحية بكل غال ونفيس، والذي منع المفسرين من فهمها على هذا النحو، هو خلو ساحة الفكر الإسلامي من التوجه المستقبلي، أو من التخطيط للمستقبل البعيد، وأسباب ذلك تأتي فيما بعد في ثنايا هذه الدراسة.

١-القصة والمستقبل:

وجه الله تعالى نبيه موسى- عليه السلام- لمرافقة العبد الصالح الذي علّمه الله تعالى علما نافعا من لدنه، وبعد أن وقف نبي الله تعالى موسى- عليه السلام- على العبد الصالح، والتمس إليه أن يرافقه ليتعلم منه، وبعد شيء من التمنع أو الرفض المعلل بضعف عزيمة موسى- عليه السلام- وافق العبد الصالح، وبدأت الرحلة، وواجهت الرحلة ثلاث مشاكل قام العبد الصالح بحلها بطريقته الخاصة.

المشكلة الأولى:

انطلق نبي الله تعالى موسى- عليه السلام- والعبد الصالح إلى شاطئ البحر ليستأنفا رحلتهما، وركبا سفينة سليمة متماسكة، وليس بها عيب يُرَي، وفجأة وراكبو السفينة فوقها في وسط المياه، قام العبد الصالح فخرق السفينة، ولما سأله نبي الله تعالى موسى عن سر هذا التصرف، قال له لقد أردت أن أصنع فيها عيبا لكي أصرف عنها ذلك الملك الطاغية الذي ياخذ كل سفينة غصبا، فهذا التصرف من العبد الصالح يتعلق بالمستقبل، وهو مستقبل السفينة، لأنه أراد أن يؤمن هذا المستقبل لهم، لأنهم»مساكين ولو صودرت سفينتهم لأصبحوا يتكففون الناس، ومن أجل ذلك ضحى بهذا الخرق وبراحة راكبي السفينة وأمنهم.

المشكلة الثانية:

وجد العبد الصالح طفلا بريئا يلعب أمام بيته فقتله، وسبب حزنا عظيما لأبويه ولموسى- عليه السلام-، فالطفل في الوقت الحاضر قرة عين لوالديه، ولكنه في

المستقبل المكشوف للعبد الصالح سيرهقهما طغيانا وكفرا، فمن أجل مستقبل آمن لهما تم قتل الغلام، واحتج نبي الله تعالى موسى-عليه السلام- على هذا الفعل، وأجاب العبد الصالح بأن قتل الطفل قد تم رعاية لمستقبل الوالدين.

المشكلة الثالثة:

وانطلقا ودخلا قرية وطلبا الطعام فَلم يجبهما إلى ذلك أحد من أهل القرية، وخرجا منها فوجدا عند أطرافها جدارا على وشك السقوط، فأعاد العبد الصالح إقامة هذا الجدار فغضب نبي الله تعالى موسى لهذا التصرف وسأله وهو يهم بفراقه بناء على اتفاقهما، فأخبره أن هذا الجدار لغلامين يتيمين في المدينة وتحته كنز لهما فلو أخرج الكنز في الوقت الحاضر ما استطاعا أن ينتفعا به، ولكنهما حين يبلغان أشدهما فيتصرفان فيه بطريقة طيبة، ومن أجل هذا أعدت بناء الجدار رعاية للمستقبل المالي لهذين الغلامين.

تعلقت المشاكل الثلاث برعاية المستقبل، وقد تصرف العبد الصالح فيها على النحو الذي رأيت، وكل مشكلة اقتضت تضحية بشيء من الحاضر لصالح المستقبل البعيد، وهذا هو الدرس الذي كان يجب أن يعيه المفسرون، ولو حدث هذا لتغير حال الأمة الإسلامية، لأنها شديدة التمسك بما يتعلق بكتاب الله تعالى، غير أنها-أي الأمة- لم تجد في كثير من الأحيان في تفسير كتاب الله تعالى إلا مجموعتين من الخلافات والحكايات أما المعنى الجوهري الحقيقي بالبحث فلم يلتفت إليه أحد، ولكي أدلل على ذلك أتعرض لبعض آراء للمفسرين في هذا الموضوع.

الرأي الأول:

يقول الإمام الشوكاني: «ووجه ذكر هذه القصة في هذه السورة، أن اليهود لما سألوا النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وقالوا: إن أخبركم فهو نبي وإلا فلا، ذكر الله تعالى قصة موسى والخضر تنبيها على أن النبي لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار.

وقد اتفق أهل العلم على أن موسى المذكور هو موسى بن عمران النبي المرسل إلى فرعون، وقالت فرقة لا التفات لما تقوله؛ منهم: نوف البكائي: إنه ليس ابن عمران، وإنما هو موسى بن ميشي بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى بن عمران وهذا باطل».[1]

يرى الإمام الشوكاني أن هذه القصة رُوِيت هنا لكي يفهم اليهود أن النبي ﷺ لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار، وهذا هو الهدف من رواية القصة عنده، والحقيقة أن هذا الهدف متواضع جدا، بجانب عملية التخطيط لشيء يأتي في المستقبل ورعايته، ومثل هذه التفسيرات أو الشروح لكتاب الله تعالى تصرف الذهن المسلم عن التفكير في الأمور المهمة والمفيدة.

رأي الإمام الألوسي:

يقول الإمام الألوسي في تفسير هذه الآيات: «وذهب عبد الرازق الكاشي إلى أن الخضر عبارة عن البسط وإلياس عن القبض، وذهب بعضهم إلى أن الخضرية رتبة يتولاها بعض الصالحين على قدم الخضر الذي كان في زمان موسى- عليهما

١) الإمام الشوكاني: فتح القدير ٣/ ٢٩٧

السلام- ومع وجود هذه الأقوال لا يتم الإجماع، وكونها غير مقبولة عند المحققين منهم لا يتممه أيضا، وإجماع جماهير العلماء على ما نقل ابن الصلاح والنووي ومسلم، لكنه ليس الإجماع الذي هو أحد الأدلة الشرعية والخصم لا يقنع إلا به...

{والخضر ...} له علامات عند أهله ككون الأرض تخضر عند قدمه، وأن طول قدمه ذراع، وربما يظهر منه بعض خوارق العادات بما يشهد بصدقه على أن المؤمن يصدق بقوله بناء على حسن الظن به، وقد شاع بين زاعمي رؤيته عليه السلام أن من علاماته أن إبهام يده اليمني لا عظم فيه، وأن بؤبؤ إحدى عينيه يتحرك كالزئبق.. وتعقب بأنه بأي دليل ثبت أن هذه علاماته: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾...

وظهور الخوارق مشترك بينه وبين غيره من أولياء الأمة، فيمكن أن يظهر ولي خارقا ويقول: أنا الخضر مجازا لأنه على قدم الخضر أو لاعتبار آخر، ويدعوه لذلك داع شرعي...

ومما يُبْنَى على اجتماعه-عليه السلام- بالكاملين من أهل الله تعالى، بعض طرق إجازتنا بالصلاة البشيشية فإنها تُروى عن الخضر- عليه السلام- عن الولي الكامل الشيخ عبد السلام بن بشيش قدس سره». [1]

في الفقرات السابقة ترك الإمام الألوسي الهدف الواضح من سرد هذه القصة وهو رعاية المستقبل، والتضحية من أجل ذلك، وقد نُقلَت هذه الفقرات على طولها لأوضح أمرين:

١) الإمام الألوسي: روح المعاني ٥/ ٢٣٧ ط دار الفكر ١٩٧٨م.

الأول: خلو معظم التفاسير من الفكر المستقبلي.

والثاني: البحث عن المجهول والمبهم، وإقامة المعارك حوله وليس هذا أمرا هينا كما يبدو للناظر لأول وهلة، بل هو أمر شغل علماء الأمة واستقطب اهتمامهم لفترات طويلة من التاريخ الإسلامي، وأحاطت بأحلام البسطاء من المسلمين الذين لا يستطيعون الوصول إلى رضا الله تعالى على قدم الخضر مثلا، والذين لم يتمكنوا من مشاهدة إبهام يده اليمني، وهل به عظم أم لا.

كانت هذه المعارك دائرة، والعدو ينقض على أرض الإسلام من كل جانب..

رأي الشيخ إسماعيل البرسوي:

ينحو الإمام البرسوي في تفسيره إلى الاتجاه الصوفي، ويجعل السر في القصة هو محاولة موسى الحصول على الوحدة مع الله تعالى فيقول: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا**﴾، بإرشاد الله لك أي تعلمني طريق الاسترشاد من الله بلا واسطة جبريل والكتاب المنزل، ومكالمة الحق تعالى فإن جميع ذلك كان حاصلا له، فإن قيل فهل مرتبة فوق هذه المراتب الثلاث؟

قلنا: إن هذه المراتب وإن كانت عزيزة جليلة ولكن مجيء جبريل يقتضي الواسطة، وإنزال الكتاب يدل على البعد، والمكالمة تنبئ عن الإشفيفية، والرشد الحقيقي من الله للعبد هو أن يجعله قابلا لفيض نور الله بلا واسطة، وذلك يتجلى جماله وجلاله الذي كان مطلوب موسى بقوله : أرني أنظر إليك فإن فيه رفع الإشفيفية وإثبات الوحدة، التي لا يسع العبد فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل.[1]

١) الشيخ إسماعيل البرسوي: روح البيان ٥/ ٢٧٤ ، ٢٧٥ ط دار الفكر.

وهذا التفسير لا يحتاج إلى تعليق، فكلام موسى عليه السلام لله تعالى وإنزال التوراة ووجود جبريل عليه السلام، كل ذلك لا يقنع الشيخ البرسوي، ويثبت أن موسى عليه السلام لم يقنع بكل ذلك، بل كان يبحث عن الوحدة التامة مع الله تعالى بدلا من الإشفيفية التي يعيشها في ظل الوحي وكلام الله تعالى.

الإمام الفخر الرازي:

بعد أن تجاوب الإمام الفخر الرارزي من حجج القائلين بنبوة الخضر ورد عليها، جعل الحكمة من القصة هي تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى فقال: لما قرر العالم هذه الجوابات قال: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾، يعني إنما فعلت هذه الفعال لغرض أن تظهر رحمة الله تعالى، لأنها بأسرها ترجع إلى حرف واحد وهو تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى كما قررنا.[1]

والإمام الفخر الرازي يشير إشارة غير واضحة إلى التضحية من أجل صيانة المستقبل، فيقول : تحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، إلا أنه وإن كان لم يبرز المستقبلية في القصة، فهو أفضل من غيره في فهمها على كل حال.

وسوف أسوق هنا هذه الآيات الكريمات مترابطة، لكي تعطي للقارئ صورة واضحة عن أَجَلِّ معانيها، وهو رعاية المستقبل والاهتمام به قال تعالى:

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا

١) الإمام الفخر الرازي ٢١/ ١٦٢.

لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى
لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ
لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ
أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى
مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ
نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل
لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا
فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ
قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ
أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا
فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾
أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ
أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن
يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ
لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً
مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ،

سورة الكهف- من الآية ٦٥- ٨٢

وبالنظر الدقيق إلى هذه الآيات يتجلى فيها أبرز معانيها وهو رعاية المستقبل، وقد تكون هناك معان أخرى، إلا أن أبرزها وأتمها هو عناية الله تعالى بالمستقبل، وحسن التدبير له، أما كون الخضر لم يمت حتى الآن، أو دلالة الآيات على العلم اللدني أو تفوق العبد الصالح على النبي، أو رواية الخضر على أحد الصالحين صلاة على سيد المرسلين، أو كون هذا العبد نفسه هو الخضر أم لا، فكل هذه قضايا غير منتجة ولا تؤثر في حياة المسلمين، ولا تدفعهم إلى التقدم خطوة واحدة، أما حسن التدبير للمستقبل فهو المعنى الوحيد الذي يستقيم مع هيمنة القرآن الكريم على الكتب السابقة، وصلاحيته لكل زمان ومكان، وهو الذي يقوي الهمة، ويدفع الأمة إلى الرقي والازدهار .

الموقف الرابع:

وقبل أن نغادر سورة الكهف نعرج على صورة أخرى للعناية بالمستقبل، فقد مكَّن الله تعالى لذي القرنين وآتاه من كل شيء سببا، حتى إذا بلغ بين السدين وجد أناسا مستضعفين في الأرض، يعانون من إفساد يأجوج ومأجوج، وكان من الممكن أن يقضي عليهم ذو القرنين بحملته العسكرية الجبارة، ولكن ذلك كان يُعْتَبر قضاء مرحليا (تكتيكيا) لأنهم سيتفرقون في الجبال ثم يتجمعون ويتشكلون ويعاودون الهجوم والإفساد مرة أخرى، ولذلك قرر ذو القرنين أن ينشئ لهم السد الذي طلبوه وهو بالصورة التي بني بها عملٌ مستقبليٌّ (استراتيجيٌّ) خالص، لانه منعهم من الوصول إلى القوم المستضعفين حاضرا ومستقبلا قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ

نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ سورة الكهف، الآيات ٩٣- ٩٨.

يُلَاحظ أن ذا القرنين حين طُلِب منه بناء السد لم يلجأ إلى الحل الوقتي (التكتيكي) ويدمر ما يستطيع من يأجوج ومأجوج، ولم يلجأ إلى سفسطة علم الكلام، ويقول لهم إن كان ذلك مقدر فهو واقع بكم لا محالة، وهل هو مكتوب عليكم أم لا؟ وهل أنتم تتبعون المعتزلة أم الأشاعرة؟

لم يفعل من كل ذلك شيئا ولكنه اتجه مباشرة إلى الفعل والعمل الذي ينسجم مع الفطرة ويوازي دوران عجلة الحياة، بل يعبد لها الطريق لتدور في يسر وسهولة، اتجه إلى تأمين المستقبل والتدبير له.

رأي بعض المفسرين:

وسوف نستأنس برأي بعض المفسرين في هذه القضية لنرى إلى أي مدى يوجد الفكر المستقبلي عندهم أو لا يوجد، وتكون هذه تتمة مناسبة للموقف الرابع.

رأي الإمام ابن كثير:

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيات، يقول تعالى مخبرا عن ذي القرنين ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا) أي سلك طريقا من مشارق الأرض حتى إذا بلغ بين السدين

وهما جبلان متناوحان بينهما نقرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فسادا، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين أن الله تعالى يقول:

(يا آدم: فيقول لبيك وسعديك، فيقول ابعث بعث النار، فيقول وما بعث النار؟، فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فقال إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج..

وقد حكى النووي في شرح مسلم عن بعض الناس أن يأجوج ومأجوج خُلِقوا من مني من آدم فاختلط بالتراب فخُلِقوا من ذلك، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم وليس من حواء وهذا قول غريب جدا لا دليل عليه.[1]

ويستمر الإمام ابن كثير في رد الروايات الباطلة، وموازنة الروايات الأخرى الراجحة لكنه لا يلتفت إلى فكرة المستقبل الموجودة في هذا السياق ويروي كيف أن أحد الخلفاء أرسل حملة عسكرية للتعرف على هذا المكان، وعادت الحملة بعد سنتين لتروى للخليفة العجائب، وهكذا يسير تفسير النص عند ابن كثير، أما العبرة من النص فلا تقع لها على أثر.

الإمام الزمخشري:

يأجوج ومأجوج: اسمان أعجميان بدليل منع الصرف، وقُرِئا مهموزين، وقُرِئا رؤية: آجوج ومأجوج، وهما من ولد يافث، وقيل: يأجوج من الترك، ومأجوج

١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٠٣، ١٠٤.

من الجبل والديلم مفسدون في الأرض. قيل كانوا يأكلون الناس، وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئا أخضر إلا أكلوه، ولا يابسا إلا احتملوه، وكانوا يلقون منهم قتلا وأذى شديدا، وعن النبي ﷺ في صفتهم «لا يموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح» قيل هم على صنفين: طوال مفرطو الطول، وقصار مفرطو القصر... ورُوي يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه، ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس، ثم يبعث الله تعالى نغفا[1] في أقفائهم فيدخل في آذانهم فيموتون.[2]

والإمام الزمخشري كسابقه الإمام ابن كثير، لم يلتفت إلى رعاية المستقبل في الآيات، بل اهتم بنسب يأجوج ومأجوج، وطولهم وعرضهم، وما كانوا يفعلون بالناس ثم اكتشف في النهاية أنهم إذا فتحوا السد انطلقوا على الناس فلم يصلوا إلى مكة والمدينة وبيت المقدس، ولا أدري ما الذي يمنعهم من ذلك، والعلم عند الإمام الزمخشري لأنه صاحب هذا الاكتشاف الكبير.

رأي صاحب الظلال:

يقول: وبعد فمن هم يأجوج ومأجوج؟ وأين هم الآن؟ وماذا كان أمرهم ، وماذا سيكون؟ كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن الكريم، وفي بعض الأثر الصحيح.

١) النغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، المعجم الوسيط، ٢/ ٩٣٧١ ط مجمع اللغة العربية ١٩٨٠.

٢) الإمام الزمخشري، الكشاف ٢/ ٤٩٩، ٥٠٠ ط الحلبي ١٩٧٢م.

والقرآن الكريم يذكر في هذا الموضوع ما حكاه من قول ذي القرنين: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾. وهذا النص لا يحدد زمانا، ووعد الله تعالى بمعنى وعده بدك السد ربما يكون قد جاءهم منذ هجم التتار وانساحوا في الأرض ودمروا الممالك تدميرا، وهناك حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن سفيان الثوري، عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت ابي سفيان عن أمها حبيبة عن زينب بنبت جحش قالت: استيقظ الرسول ﷺ من نومه وهو محمر الوجه، وهو يقول: ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بإصبعيه السبابة والإبهام: قلت: يارسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم: إذا كثر الخبث.

وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن، وقد وقعت غارات التتار بعدها، ودمرت ملك العرب بتدمير الخلافة العباسية على يد «هولاكو» في خلافة «المعتصم» آخر ملوك العباسيين، وقد يكون هذا تعبير رؤيا الرسول ﷺ وعلم ذلك عند الله تعالى وكل ما نقوله ترجيح لا يقين.[1]

والأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى وإن كان يبتعد بقدر المستطاع عن الأسلوب التقليدي في تفسير القرآن الكريم، إلا أنه ركز على خروج يأجوج ومأجوج على الناس، وهل ذلك حدث أم لا؟ ولم يتنبه إلى هذا العمل المستقبلي الاستراتيجي الذي قام به ذو القرنين.

وهنا يتضح اختفاء فكر الاستقبال من تفسير القرآن الكريم عند القدماء والمحدثين على السواء ولهذا أسباب كثيرة ، سنورد بعضها في ثنايا هذه الدراسة بإذن الله تعالى.

١) الأستاذ سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢٢٩٤، ٢٢٩٥.

الموقف الخامس:

دخل نبي الله تعالى يوسف بن يعقوب عليه السلام السجن وقضى بضع سنين وهو بريء لم يرتكب إثما ولا جرما، ورَأَى الملك في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر يابسات. وذهبوا إلى نبي الله يوسف في السجن وطلبوا منه تأويل الرؤيا التي رآها الملك، فأولها لهم بسبع سنين كثيرة الثمار، وسبع مجدبة، وعاما كثير الثمر يأتي بعد هذه الأعوام.

ولم يقف يوسف عليه السلام عند حد التأويل، بل وضع خطة يستغرق تنفيذها خمسة عشر عاما، وبعد أن خرج من السجن وقابل الملك، أعطاه الملك فرصة تطبيق خطته والإشراف عليها، وبالفعل نجحت الخطة نجاحا عظيما.

والذين يقفون عند نجاح هذه الخطة في هذه السنين فقط، لا يعقلون فهم القرآن الكريم، ولا تقدير الأعمال المخططة (الاستراتيجية) لأنها تؤثر كثيرا في حياة الشعوب، ولا أغالي إن قلت إن مصر عاشت من يوم أن أقام فيها يوسف المخازن التي تحفظ الغلال وإلى عهد قريب، وهي تطبق هذه الخطة.

وكانت مصر تصدر القمح وكثيرا من أنواع الحبوب إلى جهات كثيرة من العالم، ولكنها عادت إلى الفترة السابقة على وجود يوسف عليه السلام من الجدب والجوع، حين أعرضت عن التخطيط للمستقبل وعاشت حاضرا بلا أمل يسعى إليه وأملا بلا حاضر يرتكز عليه.

بقى أن نقول إنه في هذا الزمن الذي خلت فيه ساحة الفكر الإسلامي من الفكر المستقبلي، لو عُرضت هذه المشكلة على أحد المتحدثين في الإسلام كما عُرضت على يوسف عليه السلام، لردد على أسماع الناس: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ

وَمَا تُوعَدُونَ ﴾، و﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾. من غير أن يفطن إلى معاني هذه الآيات، ومن غير ربطها بسياقها، وربطها بخلافة الإنسان في الأرض، وتحمله مسئولية تنفيذ مشروع الله تعالى في الكون، ولسوف يعتبر غفلته هذه إيمانا ولسوف يأمر الناس بالتوكل على الله تعالى، وترك المستقبل لله تعالى.

وسوف أسوق هنا هذه الآيات من سورة يوسف- عليه السلام- ونترك الآيات تشرح بنفسها المشكلة، وكيف عالجها يوسف عليه السلام علاجا مستقبليا مفيدا للحاضرين، وللذين يأتون من بعدهم، وكيف حوَّل مصر إلى مزرعة العالم في أوقات من التاريخ الإنساني، الذي يلي فترة يوسف عليه السلام.

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ

﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۖ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة يوسف، الآيات من ٤٣- ٥٦).

نعود مرة أخرى إلى بعض السادة المفسرين لنرى وجود الفكر المستقبلي في تفاسيرهم.

الإمام القرطبي:

يقول: فيه مسألتان: الأولى: قوله تعالى ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسرها له، فقال: السبع من البقرات السمان، والسنبلات الخضر سبع سنين مخصبات، أما البقر العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبات ، فذلك قوله تزرعون سبع سنين دأبا، أي متوالية متتابعة.

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ قيل: لئلا يتسوس وليكون أبقى، وهكذا الأمر في ديار مصر ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي استخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة وهذا القول منه أمر، والأول خبر، ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمرا ، وإن كان الأظهر منه الخبر، فيكون معنى تزرعون أي ازرعوا.

الثانية: هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة وكل ما يفوت شيئا منها فهو مفسدة ودفعه مصلحة، ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية، ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله تعالى ورحمة رحم بها عباده، من غير وجوب عليه ولا استحقاق، وهذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين.[1]

وفي تفسير الإمام القرطبي السابق بعض النقاط التي تخدم فكرة الاستقبال في القرآن الكريم، ووعي طيب بمقصود الشريعة، فهو يقول عن الآية التي تخص (استراتيجية القمح في مصر): هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، وهذا يدل على وعيه رضي الله عنه بمقصد الشريعة العام، فكل ما يتضمن أمرا من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئا منها فهو مفسدة.

ويقول: ولا خلاف أن مقصود الشرائع (هو) إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل، والإمام القرطبي يعبر عن المستقبلية في هذه الآيات ويمزجها مزجا بمقصد الشريعة العام، لأنه بدون التخطيط ومراعاة المستقبل لا تقوم دنيا، ولا يبقى دين، أما الذين ينظرون إلى التخطيط للمستقبل على أنه نقص في الثقة بالله تعالى، فهؤلاء بعيدون جدا عن فهم منهج الإسلام، ومشروع الكون وتطور الحياة، وهو فكر يسعد العدو، ويحزن الصديق، ولعل من المنطق أن نطلق على هذا الفكر، أنه فكر الغياب.

١) الإمام القرطبي- الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٠٢، ٢٠٣.

رأي الأستاذ سيد قطب:

يقول: ولكن كلام يوسف هنا ليس هو التأويل المباشر المجرد، إنما هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه وهذا أكمل، قال: تزرعون سبع سنين دأبا، أي متوالية متتابعة وهي السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان.

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ أي فاتركوه في سنابله لأن هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية.

﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ فجردوه من سنابله واحتفظوا بالباقي للسنوات الأخرى المجدبة، المرموز لها بالبقرات العجاف.

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ لا زرع فيهن.

﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ وكانت هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما يُقَدم لها لشدة نهمها وجوعها.

﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي إلا قليلا مما تحفظونه وتصونونه من التهامها.

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾، أي ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المجدبة، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب، تنقضي ويعقبها عام رخاء يُغَاث الناس فيه بالزرع والماء وتنمو كرومهم فيعصرونها خمرا، وينمو سمسمهم وخسهم وزيتونهم فيعصرونه زيتا.[1]

١) الأستاذ سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٩٩٣، ١٩٩٤.

تحدث الأستاذ سيد قطب- رحمه الله تعالى- عن تفاصيل الخطة، ولكنه لم يُوَفق كما وُفِق الإمام القرطبي، رحمه الله تعالى في ربطها بالفكر المستقبلي ثم ربط الفكر المستقبلي بمقاصد الشريعة العامة، وهي تحقيق مصالح الناس في دنياهم والعمل على تطوير الحياة .

الموقف السادس:

خرج نبي الله تعالى موسى عليه السلام من مصر خوفا على حياته، بعد أن قتل أحد المصريين، في تشابك نشأ بين المصري واليهودي، ونَصَر موسى عليه السلام اليهودي، وقتل المصري من غير قصد لقتله. وعند ذلك خرج من المدينة هاربا بعد أن أخبره رجل جاء إليه يسعى بأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه.

وعندما توجه إلى مدين، وورد ماءها وجد عليه أناسا كثيرين يسقون ووجد خلفهم امرأتين تمنعان إبلهما وغنمهما من السقي، ولما سألهما عن سر ذلك المنع قالتا: لا نسقي حتى يسقي الرعاة ويتركون الماء، والذي دفعنا إلى ذلك أن أبانا شيخ كبير، فعز عليه أن يكون سبب تأخير سقياهما هو مزاحمة الرجال، فسقى لهما، ولم يسألهما أجرا على ذلك بل انصرف صامتا، وشكر الله سبحانه وتعالى على ما رزقه من خير، وأكد في شكره أنه مازال فقيرا ومحتاجا للمزيد من عطاء الله سبحانه وتعالى، ولما رجعت البنتان وأخبرتا أباهما بما حدث شكر الله تعالى على ذلك ثم قالت إحدى البنتين، وكانت قد أدركت بفراستها أنه غريب وفي حاجة إلى من يستأجره.

- ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ فإنه أفضل من تستأجر قوة وأمانة، فأرسلها إليه وجاءته وأخبرته بما أُرْسلت له وذهب معها إلى أبيها، والتقيا لقاء الأتقياء

الأوفياء، وعرض عليه الأب أن يزوجه بنتا من بناته مقابل أن يعمل عنده ثماني سنوات ﴿ ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ ﴾، ثم طلب منه أن يتم العشرة تكرما، ولكن موسى عليه السلام لم يعط موافقته على زيادة عامين على الثمانية، بل قال له: إن قضيت ثمانٍ فقط قضيت ولا شيء عليّ وإن قضيت عشرا فقد قضيت، أي أنه أعلن الموافقة على الالتزام بالثمانية والموافقة مع عدم الالتزام على العامين التاسع والعاشر. وفي هذا النص تلاحظ ما يلي:

أ) إن الرجل الصالح وموسى عليه السلام اتفقا على خطة يستغرق تطبيقها ثمان أو عشر سنوات ولم يطعن ذلك في دينهما.

ب) إن موسى عليه السلام لم يوافق ملتزما على العشر، رغم أنه كان في موقف مشحون بالعواطف المختلفة لأن وقت المؤمن ثمين جدا، وهو ثروته الحقيقية في الحياة.

ج) إن موسى عليه السلام – لم يرفض الزيادة رفضا قاطعا، وهذا لفرط أدبه وكياسته– لأن هذه الزيادة داخلة في صداق الزوجة، ورفضه الواضح كان سيسبب حرجا للوالد، لأنه هو الذي عرض عليه، والرفض يعني أن الزوجة لا تساوي أكثر من ثماني حجج، وهو يضر بشعور الوالد والزوجة على السواء، أضف إلى ذلك أنه سيظهر بخيلا، والنساء لا يحببن البخلاء.

د) إن الله تعالى أورد القصة في معرض الرضا عن تفاصيلها، ولم يعترض سبحانه وتعالى على شيء منها.

هـ) إنني أرجح أن موسى عليه السلام قضى الأجل الأقرب وهو الثماني سنوات، ثم أصبح حرًّا ثم قضى الزيادة، ثم توجه إلى مصر لتبدأ رسالته المباركة.

و) إن الله تعالى يرضى عن التخطيط للمستقبل ويباركه ويجعله داخلا في عقد شرعي عوضا عن الصداق.

القصة في القرآن الكريم :

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۖ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ

إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

(سورة القصص، الآيات ١٥ - ٢٩).

وبعد هذه الملاحظات نعود معًا إلى التفاسير لنطلع على آراء بعض المفسرين حول هذه القصة وعناصر المستقبل فيها.

الإمام ابن كثير:

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآيات ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾: أي على أن ترعى غنمي ثماني سنين، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك، وإلا ففي الثماني كفاية، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين، وقد استدل بهذه الآية لمذهب الأوزاعي، فيما إذا قال بعتك هذا بعشرة نقدا، أو بعشرين نسيئة، أنه يصح، ويختار المشتري بأيهما أخذه صح.. قال موسى

لصهره إن الأمر على ما قلت، من أنك استأجرتني على ثماني سنين فإذا أتممت عشرا فمن عندي، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط، ولهذا قال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾[1].

ويرى الإمام ابن كثير بعد ذلك أن موسى قضَى عشر سنوات واستدل على ذلك بأحاديث كلها مرسلة، ولم يفسر معنى (لام الأجل) هل هي للعهد أم للجنس؟

فإن كانت للجنس فهي للأجل الأول، وأجل واحد وليس أجلين، وإن كانت للعهد فالعهد الملزم بين الرجلين على أجل واحد. ولا أدري لماذا ترك العلامة ابن كثير توضيح معنى اللام في الأجل، وربما لأن ذلك كان سيناقض الفرضية التي وضعها، وهو قضاء العشر سنوات، أو يعارض بعض الأحاديث التي أوردها في تفسيره وهي أحاديث يجب الأخذ بها إن كانت صحيحة مُوَثَّقةً.

يقول : قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ ، لَمَا فرغ شعيب من كلامه قرره موسى عليه السلام، وكرر معناه على جهة التوثيق في أن الشرط إنما وقع في ثماني حجج، وأيما استفهام منصوب بـ «قضيت» والأجلين مخفوض بإضافة «أي» إليها «وما» صفة للتأكيد وفيه معنى الشرط وجوابه «فلا عدوان» وأن «عدوان» منصوب «بلا».

وقال ابن كيسان «ما» في موضع خفض بإضافة «أي» إليها وهي نكرة و«الأجلين» بدل منها، وقرأ الحسن «أيما» بسكون الياء.

١) الإمام ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٨٥.

وقرأ ابن مسعود «أي الأجلين ما قضيت»، وقرأ الجمهور «عدوان» بضم العين، وأبو حيوة بكسرهات، والمعنى لا تبعة على ولا طلب في الزيادة عليه، والعدوان التجاوز في غير الواجب، والحجج السنون. (١)

يقرر الإمام القرطبي الخطة التي اتفق عليها العبد الصالح وموسى عليه السلام، ويؤكد أن موسى عليه السلام التزم التزاما واجبا بالثماني سنوات، واعتبر أنه إذا قضاها فلا يجب أن يُطالَب بغيرها، بل يترك هذا «الغي» لظروفه المستقبلية، وفي ظرف كهذا لو طُلب من رجل في هذه الأيام شرطٌ كهذا لوافق على الزيادة من غير احتراز، لأننا أصبحنا لا نهتم بالمستقبل ولا بالتخطيط والتدبير له من أي ناحية، وعلى أي وجه من الوجوه.

رأي الأستاذ سيد قطب:

يقول: وقبل موسى العرض، وأمضى العقد في وضوح كذلك ودقة وأشهد الله: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

إن مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها ولا للعتمة ولا للحياء، ومن ثم يقر موسى العرض، ويبرم العقد، على ما عرض الشيخ من الشروط، ثم يقرر هذا ويوضحه ﴿ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ﴾، سواء قضيت ثماني سنوات أو أتممت عشرا فلا عدوان في تكاليف العمل، ولا عدوان في تحتيم العشر.

١) الإمام القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٢٧٩.

فالزيادة على الثمانية اختيار ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين، وكفى بالله وكيلا بين موسى- عليه السلام – هذا البيان تماشيا مع استقامة فطرته ووضوح شخصيته، وتَوْفية بواجب المتعاقدين، في الدقة والوضوح والبيان، وهو ينوي أن يوفي بأفضل الأجلين كما فعل، فقد رُوي أن رسول الله ﷺ أخبر أنه (قضى أكثرهما وأطيبهما). (١)

وتبدو عناصر الخطة المستقبلية التي اتفق عليها صاحب موسى معه واضحة بارزة عند صاحب الظلال، وركز- رحمه الله تعالى- على الدقة في الاتفاق، وتوثيق عناصر الاتفاق بالتكرار، وإشهاد الحق سبحانه وتعالى على هذا الاتفاق.

الإمام الزمخشري:

يقول: «ذلك» مبتدأ و«بيني وبينك» خبره، وهو إشارة إلى ما عاهده عليه شعيب، يريد ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه، وشارطتني عليه قائم بيننا جميعا لا نخرج كلانا عليه، لا أنا عمَا شرطت عليَ ولا أنت عما شرطت على نفسك.

ثم قال : أي أجل من الأجلين قضيت الذي هو العشر أو اقصرهما الذي هو الثمان ﴿ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ »، أي لا يعتدي على في طلب الزيادة عليه، فإن قلت تصور العدوان إنما هو في أحد الأجلين الذي هو الأقصر وهو المطالبة بتتمة العشر فما معنى تعليق العدوان بهما؟

قلت معناه كما أني إن طُولبتُ بالزيادة على العشر كان عدوانا لا شك فيه، فذلك إن طُولبتُ بالزيادة على الثمان، أراد بذلك تقرير أمر الخيار، وأنه ثابت مستقر،

١) الأستاذ سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ١٩٩٣، ١٩٩٤.

وأن الأجلين على السواء إما هذا وإما هذا من غير تفاوت بينهما في القضاء وأما التتمة فموكولة إلى رأيي إن شئت أتيت بها، وإلا لم أُجبَر عليها.[1]

وبرأي الإمام الزمخشري ننتهي من الموقف السادس بعد أن ظهر أن المستقبلية كانت أساس بنيانه وأهم أركانه.

الموقف السابع:

يدور هذا الموقف حول موقف حالي يحتاط فيه للمستقبل وهذا ما يعني في لغة العسكريين- استغلال الموقف التكتيكي لصالح الموقف الاستراتيجي العام- فقد أمر الله سبحانه وتعالى- نبيه ﷺ أن يحارب فئة خارجة وأن يشدد عليها في قتال بعد، ويكون الهدف المرحلي (التكتيكي) هو تدمير هذه الفئة والهدف المستقبلي (الاستراتيجي) هو إظهار شوكة المسلمين وعزتهم للآخرين لتصبح العزة والغلبة علامة من علامات المسلمين، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾. (سورة الأنفال- الآية ٥٧).

والآية تتحدث عن رؤية مستقبلية شاملة تستغرق مئات السنين، بل الآلاف في السنين، فقد ظل يُنظَر للجيش الإسلامي على أنه الغالب دائما حتى ذهبت شوكة المسلمين في العصر الحديث.

١) الإمام الزمخشري، الكشاف ٣/ ١٧٣، ١٧٤.

رأي ابن كثير:

يقول الإمام «ابن كثير» في تفسير هذه الآية ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ ﴾، أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أي نكل بهم.

قال ابن عباس، والحسن البصري، والضحاك والسدي، وعطاء الخراساني، وابن عيينة: ومعناه: غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلا ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ قال السدي: يقول: لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيُصْنعَ بهم مثل ذلك.[1]

في الفقرة السابقة وقف الإمام ابن كثير- رحمه الله تعالى- على المعنى المستقبلي العظيم في الآية الكريمة، وقد نقل إجماعا عن الأوائل الذين عاشوا هذه المعانى العظيمة وتعاملوا بها واضحة جلية.

يقول الأستاذ سيد قطب في تفسير هذه الآية ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾: وإنه لتعبير عجيب يرسم صورة للأخذ المفزع، والهول المرعب، الذي يكتفي السماع به للهرب والشرود فما بال من يحل به هذا العذاب الرهيب؟ إنها الضربة المروعة يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا على نقض العهد، وانطلقوا من ضوابط الإنسان، ليؤمن المعسكر الإسلامي أولا، وليدمر هيبة الخارجين عليه أخيرا، وليمنع كائنا من كان أن يجرؤ على التفكير في الوقوف في وجه المد الإسلامي من قريب أو من بعيد.

١) الإمام ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٢٠.

إنها طبيعة هذا المنهج، الذي يجب أن تستقر صورتها في قلوب العصبة المسلمة، إن هذا الدين لا بد له من هيمنة، ولا بد له من قوة، ولا بد له من سطوة، ولا بد له من الرعب الذي يزلزل الطواغيت حتى لا تقف للمد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير الإنسان في «الأرض» من كل طاغوت. والذين يتصورون أن منهج هذا الدين هو مجرد الدعوة والتبليغ في وجه العقبات المادية من قوى الطاغوت هم أناس لا يعرفون شيئا عن طبيعة هذا الدين.[1]

وبعد هذه الفقرة من ظلال القرآن، نكتفي برأي كل من الإمام ابن كثير، والأستاذ سيد قطب في تفسير الفكر المستقبلي في الآية الكريمة، لأنهما معا نقلا صورة واضحة لما في الآيات الكريمة من قواعد للعمل المستقبلي، والحقيقة أن هذه الآية فرضت نفسها على المفسرين بموضوعها في علاج فكرة المستقبل، ولذلك لم يكتنف الغموض تفسيرها كما حدث للآيات السابقة.

المستقبل الأخروي في القرآن الكريم:

الموقف الأول:

يتفوق الفكر المستقبلي في القرآن الكريم على غيره من فكر البشر، في أنه يقف بالمستقبل عند الحياة، بل ينتقل بالفكر المستقبلي في القرآن من التخطيط للحياة إلى التخطيط لما بعد الموت بفترات طويلة لا يعلم مداها إلا الله سبحانه وتعالى، وإليك هذه الصورة التي تنتقل من العمل الدنيوي، بعد أن جعلته قاعدة للحياة الأخروية، أي جعل الآخرة مستقبلية (استراتيجية) للعمل الدنيوي فيقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ

ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ (سورة الإنسان، الآيات ٧- ٢٢).

في الآيات السابقة (استراتيجية) كاملة تشمل الحياة والموت، وهي تبدأ بخوف المؤمنين من يوم كان شره مستطيرا، ثم تبين لنا الخطوات العملية (التكتيكية) التي اتخذوها للوصول إلى الأمن في هذا اليوم، ثم ترسم لنا بدقة وبطء كل ما سيحدث لهم نتيجة أعمالهم التي قاموا بها من أجل تأمين مستقبلهم الأخروي، وكيف جاءت النتيجة كما يرجون، ووفق ما يخططون.

ولن نعدم رجلا من المستقعرين في علم الكلام، يقول لنا إنهم دخلوا الجنة بفضل الله تعالى ولم يدخلوها بأعمالهم وبخططهم، ونحن لا نعترض على ذلك، بل نقول إنهم عملوا بفضل الله تعالى ودخلوا الجنة بفضل الله تعالى، وفضل الله تعالى يشمل كل المخلوقات لكن من يعمل في إطاره تختلف نتيجة عمله عمن يعمل بعيدا عنه.

وبذلك يكون هؤلاء الناس قد خططوا ووصلوا إلى ما خططوا له، كما تحدثنا الآيات، ودخولهم بعملهم أو بفضل الله تعالى مشكلة كلامية، المهم لدينا أنهم دخلوا الجنة ونجوا من شر يوم القيامة كما تمنوا وعملوا لذلك، وسوف نترك المتكلمين عاكفين على مواقفهم الفلسفية وندعو الأمة كلها للعمل الـمُخَطط والتخطيط للحياة ولما بعد الحياة.

الموقف الثاني:

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (من سورة الحاقة- الآيات من ١٨- ٣٧).

في هذه الآيات الكريمة موقف لرجلين: أحدهما أدخل المستقبل البعيد في حسابه وعمل له، فترتبت نجاته على هذا الموقف المستقبلي المحسوب، والآخر عاش في الدنيا يوما بيوم، كالسائمة من الحيوان، فكان جزاؤه غضب الله سبحانه وتعالى ومقته.

وإذا نظرنا إلى الآيات الكريمة الأولى بإمعان، نلاحظ أن النجاة تأسست فيها على الوعي بالمستقبل عند من ﴿أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، فهو يعرض كتابه على الناس في زهو وفرح بالغين، ويقول إن سبب سعادتي جاء من وعيي بالمستقبل وعملي لهذا المستقبل، ويتضح ذلك في قوله ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، ثم تأتي بعد ذلك العيشة الراضية والجنة العالية والقطوف الدانية والحياة الأبدية السعيدة، كل ذلك جزاء على التخطيط الجيد للمستقبل البعيد.

ثم يعرض لنا القرآن الكريم الوجه الآخر للصورة؛ صورة الإنسان الذي لا يفكر إلا في وقته المعاشي، ولا يَنْظُر إلى المستقبل البعيد أو القريب، وهي صورة مروعة تتخلع منها القلوب وتقشعر منها الأبدان، حتى يصرخ صاحبها ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾، أي يتمنى أن موته كان موتا أبديا لا قيام منها، هنا تتلاشى عظمة الإنسان ويسقط دوره وتنعكس مهمته في الحياة، ويصيح في حيرة قاتلة وخيبة ماثلة، كيف عمل ضد نفسه كل هذه السنون، وكيف تغافل عن المستقبل وهو آت لا ريب فيه؟

ولماذا لم ينظر إلى الحكمة التي من أجلها خُلِق، والمهمة التي كُلِفّ بها بعد خلقه؟

الموقف الثالث:

وهذا الموقف يدور حول صديقين كانت لهما جلسات ومحاورات حول: هل من الواجب العمل للمستقبل البعيد؟ أم أن ذلك لا يجب وأن هذا المستقبل هراء وخواء؟

وينقلنا القرآن الكريم إلى الدار الآخرة، وقد ترتب فيها السبب على مسببه، وأصبح صاحب الوعي المستقبلي فائزا ناجيًا، وصاحب اللهو واللعب خائبا

هالكًا، يقول الله تعالى وهو يعرض لهذا الموقف ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ (من سورة الصافات، الآيات ٤٠- ٦١).

تتبلور رعاية المستقبل في هذه الآيات على أنها مسألة حتمية تتعلق بمصير الإنسان في الدنيا والآخرة، ودائما هناك فريقان، فريق يرى أن رعاية المستقبل بالتخطيط والعمل هي النجاة وهي التي تنسجم مع فطرة الإنسان، وفريق آخر يرى أن المستقبل بعد الموت خيالات وأوهام، ولا يبقى عند هذا الاعتقاد ساكنا بل ينطلق مهاجما أصحاب الفكر المستقبلي، ويقول لأحد أصدقائه: ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾.

فهو يسخر من عقيدة صاحب الفكر المستقبلي والوعي المستقبلي، ولأن المستقبل غيب وليس للإنسان فيه إلا ما خطط وعمل له فإن صاحب الفكر الآني يظل يردد هذه العبارات المستندة على الواقع المعاش، حتى يقترب من التأثير على صديقه.

وعندما يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، فإن ذلك الحوار البعيد لا ينفك يدور برأس صاحب الجنة، ولذلك يسأل ربه سبحانه وتعالى عن صديقه صاحب الحجة الآنية، وماذا حدث له؟ فيقول له انظر في النار تجد صديقك، فينظر في النار وتتجسد قمة المأساة في خطابه لصديقه وهو في النار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾.

يعني بقوله هذا: لو طاوعتك في لهوك وغفلتك وفكرك الآني، لكنت الآن مثلك أتلظى بالنار، وأُطْعَم من الزقوم، ثم يكرر له عبارته السابقة: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، ثم يقول له إن ما أنا فيه الآن من نعيم لهو الفوز العظيم.

ثم يعقب الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾، أي أن تأمين المستقبل البعيد والقريب يجب أن يكون غاية يعمل العاملون من أجلها، وتلاحظ هنا لفظتي «يعمل، والعاملون» أي أن المستقبل يحتاج إلى عمل يتصف صاحبه بالعامل، وكأن هذه الصفة غلبت على كل صفاته الأخرى، ولو أخذت آيات القرآن الكريم من هذا المنظور لفتحت لنا كنوزا من المعاني التي تضيء الطريق وتهدي إلى الصراط المستقيم.

الموقف الرابع:

في هذا الموقف يتوازى المستقبل القريب والمستقبل البعيد، ويتضح أنه ليس هناك مستقبل أخروي لمن ليس له مستقبل دنيوي، بمعنى أن الذي يفشل في التخطيط للدنيا ولتحقيق خلافة الله تعالى في الأرض، ينسحب عليه الفشل في مستقبله الأخروي.

ويتضح أن المستقبل ثروة بالنسبة للمسلم، وأن هذه الثروة تتآكل بمرور الأيام، ولا يمكن استرجاعها بعد ذلك مهما حدث، بل إن من يطلب ذلك لا يُوَاجه إلا بالسخرية والاحتقار، قال الله تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (من سورة المؤمنون- الآيات ٩٩- ١١٥).

وهذه الآية الكريمة الأخيرة توضح أن الإنسان مخلوق لهدف وغاية، وله بداية ونهاية، وأنه بين بدايته ونهايته له هدف، ولذلك يسأل الحق تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، فالله تعالى يمنح الإنسان عمره، تفضلا منه تعالى، وينظر كيف يعمل في هذا العمر، وكيف يستثمر وقته، وكيف يخطط لذلك.